# عندما يصبح رجل الدين صوتاً لغير الله

## محمد شقير



امتلأت المصادر الدينية بتعابير، من قبيل «فقهاء البلاط» أو «وعّاظ السلاطين» وغيرها، ما يشير إلى ظاهرة لم تكن يتيمة في التاريخ الديني؛ عندما ينحرف عالم الدين عن أن يكون صوتاً لله، فيصبح صدىً لسواه، وعندما يبتعد عن أن يكون تعبيراً عن الحق، فيضحي مَقوداً لهوى يُتّبع، أو سلطان يُطاع من دون الله. ولخطورة هذا الأمر، نجد النصوص الدينية شديدة النهي، متوعّدة أشد الوعيد، لمن يرتكب هذه الخطيئة، التي تدخل في مفهوم خيانة الأمانة: «وتخونوا أماناتكم». لأن النطق بالحق في زمن الباطل، من أشد ابتلاءات العالم، الذي ما لم يتجرّد عن أهوائه، لن يبصر الحق، وما لم يُسكِن اللهَ قلبَه، لن ينطق على لسانه.

هذه المقدّمة تُعدّ ضرورية، لمناقشة مَن يُدين -باسم المحبّة- القوّة التي تدافع عن الوطن، وتحرّر الأرض، وتقف بوجه الظلم؛ فهل يعبّر هذا القول عن الله ودينه؟ هل يريدنا الله أن نقبل باستباحة المجرم لنا، ولأرضنا، ودمائنا؟ وهل يريدنا الله أن نعطي رقابنا للجلاد؟ وهل تعني المحبّة أن نتخلّى عن مسؤولياتنا في حماية الوطن والإنسان؟ أليس من أعظم تعابير المحبّة محبّة المظلومين والمستضعفين؟ أليس التعبير الأصدق عن محبّة هؤلاء التضامن معهم، ومواجهة عدوّ الإنسانية دونهم؟ أليست محبّة خلق الله، في دفع الشرّ والأذى عنهم؟

ثم ماذا عن محبّة الوطن؟ هل تعني أن يُترك للعدوّ أن يستبيحه؟ أو لإجرامه أن يقتل أبناءه؟ أو لطغيانه أن يهيمن عليه؟ أو لإفساده أن يعيث في ربوعه؟ أو لأطماعه أن تنهب خيراته؟ أهكذا تكون المحبة؟

إن كنتم تتحدّثون باسم الله فليس هو الله الذي نعرف، وليس هو دينه الذي تعلّمنا. الله الذي نعرف هو الذي يأمرنا أن ندافع عن المظلوم فلا نخذله، ونقف بوجه الظالم فلا نركن إليه. الله الذي نعرف هو الله الذي لا يرتضي لنا ذلاً، أو للوطن هواناً.

أمّا الحبّ الذي قرأناه في مدرسة الله ودينه، فهو أن تحبّ وطنك، فتفديه بأعزّ ما لديك، وأن تحبّ عياله، فتذود عنهم بأغلى ما تملك. أمّا ما تدلون به، فهو صوت ما سوى الله، وإن تجلبب رداءه.

إنّ المحبة تعني أن نتضامن مع أبناء الوطن، الذين يضحّون بفلذات أكبادهم، وبجنى أعمارهم، دفاعاً عن حِماه، ولو بكلمة تقدّر تفانيهم، أو إنصاف يشكر تضحياتهم، أو بصوت يردّ عنهم كثير الأذى، الذي يلحقهم من إخوانهم في الوطن، في الوقت الذي يخوضون فيه أعظم ملحمة لحماية أرضه وكرامته.

أمّا في مَن يرى في الدفاع عن الوطن فعل انتحار؛ نعم فهو فعـل انتحـار، لكن على مذبح الوطن وإنسانه. انتحـار يـرقى إلى رتبـة الشـهادة، الشـهادة على شـركاء في الوطن، خذلوا الحق ونصروا خصمَه، وتغاضوا عن الباطل وارتضوا بغيَه؛ فهل أضحى القـرآن يرتضـي لنـا أن تُـذلّ كرامتنـا، أو يُقتـل أبناؤنـا، أو تُسـتباح أرضـنا، أو تُنتهـك سيادتنا، أو يحكم الدعيّ فينا، حتى إذا بادر مَن فيهم بقية الشـرف في هـذا الـوطن، إلى الردّ على إجرامه، ودفع عدوانه، يُقال فيهم انتحار؟

لقد كان السكوت أولى ممن خذل الحق، حتى لا ينصر الباطل. أليس الله تعالى من قال: «... فاعتدوا عليه بمثل مـا اعتـدى عليكم». ألم تسـمعوا قولـه: «وإن عـاقبتم فعاقبوا بمثل مـا عـوقبتم بـه»، ألم يـأتِ في الـذكر الحكيم: «ولا تركنـوا إلى الـذين ظلموا فتمسّكم النار»، ألم يرد عن الرسول (ص) وأهل بيتـه مـا يفيـد وجـوب الـرد على العدوان: «ردوا الحجر من حيث جـاء، فـإن الشـر لا يدفعـه إلا الشـر»، وغـيره الكثير، مما يصعب حصره، ولا تُعارض دلالته. مـع بـالغ الاحـترام لــ«رجـال الـدين»، ومرجعياته، لكن عندما يصل الأمر بالبعض إلى الترويج للاهوت خنوع باسم الله، فهو ما لا يصح السكوت عليه، أو تأويلية ركون باسم القرآن، فهو ما لا يُتغاضى عنه.

إنّ أخطر مـا في الأمـر هـو ابتـداع لاهـوت (تأويـل) استسـلام، يخـدم عـدو الـوطن، ويحقّق أهدافه، لأن في هـذا تشـويهاً للـدين، واعتـداء على اللـه، قبـل أن يكـون أيّ شيء آخر. وهو شراكة في الظلم والعـدوان، لأن أي كلمـة، تعين العـدو البـاغي في ظلمه وإجرامه، هي شراكة له في فعله وعدوانه.

والغريب في الأمر، أنه طالمـا سـمعنا عن الحيـاد، حـتى إذا احتـدم الـنزال بين بـني الوطن وعدوّه، وجدنا من فارق حياده، ولـو في بيانـه، منحـازاً إلى صـفّ مَن يعتـدي على شـركائه في الـوطن، يقتّـل أبنـاءهم، ويهـدم دورهم، ويهـدّد بـابتلاع الـوطن، وتدنيس كرامته.

لطالما كنت أعتقد أنّ مؤسسات الدين ومرجعياته، يمكن أن تكـون صـورة اللـه في هذا الوطن، وكلمةً سواء بين أبنائـه، وصـوته الـذي يحكي رسـالته إلى إنسـانه؛ لكن يتضح يوماً فيوم، أنها جزء من معضـلة الـوطن، أكـثر من كونهـا معينـاً على خلاصـه. ولعلّ السبب أنها انزلقت إلى طائفيتها، وتشرنقت في ذاتها، فأضحت هتافاً طائفيـاً، وإن باسم الدين وقميصه، ولم تعد صوتاً لله، وحكاية عن رسالته.

إنّ مَن يعود إلى نفسه وحقيقـة دينـه، سـيجد أن المقـاوم الـذي يجـود بنفسـه فـداءً لوطنه، هـو التعبـير الأجمـل عن محبّـة اللـه، وكلمتـه لعبـاده، وأنّ الأقـرب إلى اللـه ورسالته هو مَن يبذل أغلى ما لديه، من فلذة كبد، أو جنى عمر، ليقف أمـام ظـالم، ويجاهد عدوّاً باغياً، ولا يرتضي لوطنه الذلّ والهوان.

أختم بما قاله نبي الله عيسى ابن مريم: «الـدنيا داء الـدين، والعـالم طـبيب الـدين، فإذا رأيتم الطبيب يجرّ الداء إلى نفسه، فاتهموه، واعلموا أنه غير ناصح لغيره».

* أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية

21/05/2026